خليل شيبوب

في ذمة الله !

للاستاذ منصور جاب الله

في مطالع عام ١٩٢١ كان المغفور له أحمد شوقي بك في الإسكندرية يتردد على «بنك الأراضي» بغية شراء أرض زراعية؛ وإذ أدخلوه القاعة التي يجلس فيها «رئيس قلم العقود» بصر به شابا قسيما وسيما قد انهمك في تصحيح تجارب مطبعية ، وذهل عن كل ما حوله ، فسأله أمير الشعراء عما يفعل ، فأجاب بأنه يصحح «بروفات» ديوان شعره . ودهش شوقي بك وسأله :

— أأنت شاعر ؟

— لست شاعراً ولكنني أنظم الشعر أحيانا !

— هل لي أن أتشرف باسمك ؟

— اسمي خليل شيبوب

— ومن كتب مقدمة ديوانك ؟

— كتبها خليل مطران

— وتعرف مطرانا ؟

— نعم أعرفه ويزورني في منزلي في بعض الأحيان

بهذه المحاورة نشأت صداقة خليل شيبوب لأمير الشعراء ، وعرض عليه شوقي بك أن يكتب له مقدمة لديوانه تضاف إلى مقدمة شاعر القطرين ، وإذ ذاك استطار «الشيبوب» فرحا وقبل العرض شاكراً ، وإذ كان الكتاب قد تم طبعه ، فإن المقدمة ألحقت به إلحاقا . ومما نذكره منها الساعة قوله :

شيبوب ديوانك باكورة

وفجرك الأول نور السبيل

ويعني بالفجر الأول اسم الديوان ، فكذلك رأى خليل أن يسمي ديوانه رمزا إلى شبابه الأول وغضارة العمر . وليس في قصيدة شوقي هذه جيد يذكر اللهم إلا قوله في الشعر عامة :

ما فيه عصري ولا دارس

الدهر عمر للقريض الأصيل

ومنذ بضعة أعوام أقام السوريون واللبنانيون في الإسكندرية حفلا لتكريم المغفور له خليل مطران بك كان خطيبه الأول خليل شيبوب ، وإذ قارب الحفل نهايته وقف خليل مطران وبايع لخليل شيبوب بخلافة الشعر من بعده ، واعتز شيبوب بهذه «البيعة» لأنه كان يجل «المطران» ويجعل من نفسه حواريا من حوارييه . وعاب عن مطران أن الأدب لا يورث ، وليس فيه خلف ولا سلف . والحق أن «الشيبوب» كان أشعر في بابه من مطران ، وإنما سبقه المطران إلى الشهرة لأن الذين في أيديهم أمور النشر والإذاعة رأوا أن يجعلوا منه ثالثا لشوقي وحافظ . ولسنا نحب أن نناقش حجية هذا الرأي فنحن بصدد الكلام في خليل شيبوب ومذهبه في الشعر والأدب جميعا

والحق أن شيبوبا كان يتمذهب بمذهب خليل مطران في الشعر الوصفي أو الرمزي ، فهو شاعر وصاف ، والشاعر الوصاف ينزع أكثر ما ينزع إلى الناحية المادية ، بيد أن شعر شيبوب في هذا المنحى أقوى من شعر مطران ، فيه قوة نفتقدها في قريض شاعر القطرين وعاطفة مشبوبة قل أن نعثر عليها في قصائد الوصافين من الشعراء المحدثين . ثم إن شيبوبا هو الذي يقول :

ليس بجسمي قطرة من دم

لم تختبر حبا ولا تمشق

على أن خليل لم يفرغ للشعر مرة واحدة وإنما جعله هواية له في أوقات الفراغ أو في بعضها على الأصح فهو قارئ من الطراز الأول . أشهد أني ما رأيته إلا وفي يده كتاب يطالعه ، أو يريد أن يطالعه ، وتلك هوايته المفضلة في تزجية الوقت الثقيل

ولكن صديقنا خليل شيبوب يروي لنا أنه أسرف على نفسه في شبابه الأول أو في فجره الأول ، غير أننا لم نلحظ هذا الإسراف في مظاهره ، فالشيب لم يسلك سبيله إلى مفرقه حتى بعد أن ذرف على الستين أو جاوزها ، بل بقي شعره فاحم السواد ، حتى كنا نحن صدقانه الخلصاء نداعبه ونمازحه قائلين له إنه من «المنظرين» الذين لا يموتون حتى يوم القيامة !

وكان الأستاذ شيبوب سوري الأصل ولد في اللاذقية موطن أبي العلاء ، ولكن هواه إنما كان مصروفا إلى لبنان لا إلى

سوريا ، دينه فى ذلك دين النصارى من أهل الشام

وإخال أحداً ممن نعموا بعشرة خليل شيبوب لا يصبح أو يمسى إلا ذا كرا طيب خلاله وجميل شمائله وحلو دعاباته ومتارفه البهيجة ، فقد اعتاد أن يدعو أصفياءه إلى سهرات رائقة ومآدب مونقة ، يتبادلون فيها إلى جانب الطعام الشهى والشراب الروى مستعذب الأفاكيه ومستغرب النوادر ، ويتطارحون أبرع ألوان القريض

وفى غضون الحرب المنقضية ضاق « الخليل » ذرعا بظلام الإسكندرية وغاراتها المتوالية ، فغادرها إلى أطراف المدينة « وفى الأطراف تغشى منازل الكرماء » حيث أقام لنفسه مغنى فى صحراء سيدى بشر ، وهنالك بين الهامه البيد والتنائف الفيح ، كان ينعقد مجلس السَّمَر أو مجلس البحر كما سماه فيما بعد ، وتدور على الحاضرين كؤوس الطلا مترعة ، ويتساقون ألوانا من أدب شيبوب وكرم شيبوب

وإذ كر أنى زرته مرة فى مغناه هـذا ، فهتف بى : هلم بنا يا أخى نتحرر من قيود المدينة وأصفاد المدنية ، هيا بنا إلى البادية الشاسعة نعش على الفطرة كآدم الأول

وانطلقنا معا نضرب فى هاتيك التلال الرملية ، وجمعنا حطبا أضرمنا فيه النار ، ثم صنعنا شراب الشاهى السائغ ، وأنشأنا نتذوقه رشفة بعد رشفة كما يفعل الأعراب الحيطون بنا فى ذلك المكان البعيد

ولقد سمعنا قبل أيام أديبا كبيرا يقول : إن خليل شيبوب كان بقية « اليازجية » الذين ملأوا ربوع الشام فضلا وأدبا وعلما ، أو أنه كان امتداداً لهم وإن لم يكن من سلالتهم . ولقد نبالغ نحن فنقول إن الخليل كان آخر من يستحق لقب « أديب » من طائفة الذين هبطوا الإسكندرية واتخذوها مستقرا ومقاما . فليس فيهم – مع الأسف – الآن كاتب بارز ولا شاعر مبين

ولقد تحدثنا فيما أنف عن شعر خليل شيبوب فى إيجاز شديد ولا بأس من أن نورد فيما يلى نماذج من شعره (١) فهو يصبو إلى الإسكندرية ويرسل فيها هذا اللحن العذب :

هداك بمصرى حادث وقديم   وعهدك عهدى راحل ومقيم
وأنت كما شاء الجمال حبيبه
وأم كما شاء الحنان رءوم
فلو نطقت فيك الحجارة حدثت
عن المجد مرفوع اللواء عظيم

وله قصيدة عنوانها « صوت الرجاء » يقول فيها :

السقم يأكل من عزمى ومن جلدى
والحب يأكل من روحى ومن كبدى
لذا فزعت إلى الكاسات أشربها
صرفا وتشرب من عقلى ومن رشدى
أشكو إلى الخمر همى وهى تسلبنى
عقلى مخافة أن أشكو إلى أحد

ومن قوله فى مصر :

هى مصر فاتنة العصور عجيبة
تقدمت الدنيا الورى فتقدموا ؟
خطت لأثينا وروما منهجا
مشتا عليه فكان فيه المغنم

ويبين نثره أكثر ما يبين فى كتابه عن « الجبرتى » إذ توفر الخليل على دراسة العصر المملوكى وألم بكثير من دقائقه . وقال بعض المتأدبين إنه كان ناثراً أكثر منه شاعراً . والحق أنه كان مقلا فى شعره متأنقا فى نثره

* * *

ولقد كان الأستاذ خليل شيبوب يحيى مستهل هذا العام فى بيته بحفل بهيج كما اعتاد أن يفعل كل عام ، ولكن المرض ضربه فجأة ، وأصابته ذبحة صدرية حادة ، ثم تحول المرض إلى شلل ، ففقد النطق ، وساءت حالته ، وتعلقنا نحن الخلصاء من أصدقائه ومريديه بين اليأس والرجاء ، حتى إذا غربت شمس يوم السبت الثالث من فبراير الحالى غربت معها شمسه وفاضت نفسه ، ففاض بنا الجزع من أجل هـذا الأديب الكبير الذى فقدناه وهيهات أن نجد له بديلا

عوض الله فيه دولة الأدب والشعر ، فقد كان خليل شيبوب أمة من الشعر والأدب

منصور جاب الله

(١) افتقدنا ديوان خليل شيبوب ساعة تحرير هذه المقالة ، وما نعمر فى غضون المقال إنما هو نثار مما وعته الذاكرة